مجلة الدراسات اللغوية والأدبية
SUST Journal of Linguistic and Literay Studies
Available at:
http://scientific-journal.sustech.edu/

المدح عند الشعراء المخضرمين مقاربة بين كعب بن زهير وحسَّان بن ثابت

الطيب عبدالوهاب الطيب جادالسيد[1] - ستنا محمد على[2]

المستخلص:

تناولت الدراسة غرض المدح عند كعب بن زهير وحسان بن ثابت من خلال قصيدتيهما المختارين (بانتْ سعادُ) و(وأكرْم بقومٍ رسولُ الله شيعتهم) بهدف إجراء المقاربة بينهما في غرض المدح ، فقد عمِلت الدراسة على إجراء الموازنة الشعريَّة والنقديَّة والبلاغيَّة والعروضيَّة ، وصولًا لمواضع الإتفاق وأوجه الاختلاف بينهما ، مع الإشارة إلى السياقات المختلفة من شرح وتحليل ونقد وعطفاً على ماسبق اتَّضحت بعض النتائج أبرزها: كلاهما اجتهد في اختيار مفردات لوصف الممدوح ، وقد تقاربا في ألفاظ وتشبيهات الشجاعة والصبر والثبات، كلاهما استخدم البحر العروضي (البسيط) في المدح وهو مايتناسب مع هذا الغرض ، وقد اختلفا في الألفاظ فقد مالت قصيد كعب إلى صعوبة الألفاظ وغموضها واتسمت قصيدة حسان بسهولة الألفاظ، أما من حيث البلاغة، فقد ركز كعب على البيان ، أمَّا حسان فقد نوَّع في الفنون البلاغيَّة من معانٍ وبيان وبديع .

الكلمات المفتاحيَّة: المدح التقارب الاتفاق الاختلاف

Abstract:

This study deals with the purpose of praise in the poetry ofKaab bin Zuhair and Hassan bin Thabit through their selected poems *PanatSuaad* (Suaad has come into sight) and *WaAkrim Be GaominRasoulallahShiyatahum* (Honor people whom the Messenger of Allah is their companion) in order to conduct a comparison between them through their purpose of praise. The study carried outpoetic, critical, rhetorical and prosodic comparison to highlight the areas of similarities and differences between them, with reference to the different contexts of explanation, analysis, criticism. The study finds that both of them worked hard in the choice of vocabulary to describe the person who is being praised, and they converged in the issue ofexpression and depiction of courage, patience and persistence, both of them used simple poetic meter in the praise, which is relevant to this purpose. However, they differed in the poetic expressions because the expressions of Kaab tend to difficulty and ambiguity of words, whereas the poem of Hassan is characterized by simple expressions. Finally, as far as rhetoric is concerned, Kaab focused on the style, while Hassan diversified the rhetorical arts of semantic, style and rhetorical devices .

Keywords: **Praise** **Contrastive** **Agreement** **Difference**

Praise in poetry of Early Islamic Era Poets (a comparative study between Kaab bin Zuhair and Hassan bin Thabit)

مقدمة:

الحمدلله خالق السَّموات والأرض ، مُعلم الإنسان مالم يعلم، ثم الصلاة والسَّلام على أشرف خلق الله أجمعين ، محمد بن عبدالله خاتم الأنبياء والمُرسلين، عليه وعلى آله أفضل الصَّلاة وأتم التَّسليم، أما بعدُ.

تعتبر أغراض الشّعر الطريق أو القالب الذي يضع فيه الشعراء كلماتهم وحروفهم وهي إحدى تصنيفات الأدباء والنُّقاد بغرض تسهيل مهمة دراسة الأدب وهي متعددة بتعدد ظروف وبيئات الإنسان وأبرز هذه الأغراض :(المدح والفخر والوصف والغزل والهجاء والرِّثاء) هي محاولة تستكشف من خلالها الورقة كيفية النَّظم في هذه الأغراض عند الشعراء المخضرمين، مع إجراء الدراسة والتحليل ، لبيان مواضع التلاقي والاختلاف وقيمة الغرض نفسه، واستلهام الأثر الإسلامي في ذاك الغرض.

أهداف الدراسة:

تهدف الدِّراسة إلى تحقيق المرامي الآتية:

1- إيجاد أوجه المقاربة بين الشاعرين في غرض المدح.
2- إظهار مواطن الاختلاف عند الشاعرين من خلال الغرض نفسه.
3- إجراء الموازنة النَّقدية من خلال القصيدتين المختارتين في المدح لكلا الشاعرين ومايُنتج عنها.

مشكلة الدّراسة:

تتمثل مشكلة الدّراسة في إجراء التقارب والموازنة بين الشاعرين كعب بن زهير وحسَّان بن ثابت في غرض المدح.

حدود الدِّراسة:

اقتصرت الدراسة على اختيار قصيدتين للشَّاعرين المذكورين ، قصيدة بانت سُعاد أو البُردة لكعب بن زهير، وقصيدة أكرم بقومٍ رسول الله شيعتهم، لإجراء الدراسة والموازنة والتحليل.

منهج الدِّراسة:

سارت الدراسة على خطى المنَّهج الوصفي ، لكنَّها اعتمدت بشدة على أداة التحليل في نقد العمق الشِّعري من خلال الصُّور الفنية والبلاغيَّة والتراكيب والألفاظ والموسقى الشعريَّة من خلال القصيدتين.

أسئلة الدّراسة :

1- ما مفهوم المدح في اللغة والاصطلاح؟
2- مامدى تقارب الشاعرين في غرض المدح؟
3- فيما اختلف الشاعران ولماذ؟
4- ما الذي ستُنتيج عنه الدراسة التحليليَّة والنقدَّية في إظهار صور فنيَّة وبلاغية وموسيقية؟

التَّمهيد:

غرض المدح:

يُعد المدح من الأغراض الأساسيَّة في الشعر العربي وقد أخذ مكانًا وموضعًا كبيرًا عند الشعراء الجاهليين والإسلاميين، ولم يخلو ديوان شاعر جاهليًّا كان أو إسلاميًّا من غرض المدح ويمكننا أنْ نطلق عليه جوهر الشعر العربي لما يحمله من قيمة في النَّظم وأهمية عند الشاعر ، ومعلوم أنَّ بعض الشعراء كانوا يمدحون لأجل التَّكسب كالأعشى والنَّابغة الذُبياني في الجاهليَّة، وكان البعض الآخر يربأ بنفسه عن ذلك ، ولكن لما جاء الإسلام لم يمنع هذا الغرض لكنه منع المبالغة فيه ، والدليل على ذلك قول سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه : عندما فضَّل زهيرًا على سائر الشُّعراء معللًا ذلك بأمور أنَّه لا يمدح الرَّجل إلا بما فيه ، وبالنَّظر إلى شعراء الإسلام خاصة المخضرمين ، نجدهم قد صرفوا مدحهم للنَّبي صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام وستتناول الموازنة هنا قصيدة بانت سُعاد أو البُردة) لكعب بن زهير وقصيدة (أكرم بقوم رسول الله شيعتهم) لحسَّان بن

ثابت الأنصاري ليُرى فيما ستكشف عنه الموازنة من خلال تناول غرض المدح، وكان لزامًا توضيح مفهوم المقاربة في السياق اللّغوي: فالتقارب في اللغة مصدر تقارُب وتقاربَ الشيئان دنا كل واحدٌ منهم الآخر. (إميل بديع يعقوب،م4، ص655).

ومن هنا حاولت الدراسة وانطلاقًا مما سبق إيجاد أوجه التقارب أو الإتفاق بين الشاعرين في غرض المدح خاصة، كما أنّها لن تجهل مواطن الاختلاف ، تبيانًا للسياق الأدبي والنقدي والبلاغي.

تعريف المدح في اللغة:

المدح: نقيض الهجاء وهو حُسن الثناء يُقال مدحته مدحةً واحدةً ، ومَدَحه يَمدحه مَدْحًا ومِدْحةً هذا قولُ بعضهم ، والصحيح أنَّ المدح المصدر والمِدْحة الاسم والجمع مِدَحٌ وهو المديح والجمع المدائح والأمادِيح والأخيرة على غير قياس.(ابن منظور، مادة مدح، ص698).

والمدائح : جمع المديح من الشعر الذي يُمدح به كالمِدحة والأُمدوحة ورجُلٌ مادّح من قومٍ مُدَّح ومديح مَهْوح، وتَمَدَّح الرَّجل: تكلف أنْ يمدح ورجلٌ ممدوح أي ممدوحٌ جدًا.

وتمَدَّح الرجل بما ليس عنده تشبح وافتخر ويُقال: فلانٌ يتمدح إذا كان يُقرظ نفسه بشيءٍ عليها.(ابن منظور، مادة مدح ص699).

المدح في المفهوم الاصطلاحي:

عرَّفه الجُرجاني مقتضبًا وهو من أوضح التعريفات على أنَّ المدح: هو الثناء باللّسان على الجميل الاختياري قصدًا. (الجرجاني، ط20001م، ص206).

بانت سُعاد لكعب بن زهير:

هو شاعر مخضرم قد عاش في الجاهليَّة في ظل بيت شعري فكان أبوه شاعرًا وأخواه شاعرين وكذا أخته، كما أنّه عاش حياة حُبلى في الإسلام تملؤها السعادة ويعلوها الإيمان إلى أنْ توفاه الله في العام الموافق 26هـ على وجه التقريب في خلافة معاوية بن أبي سفيان وسندهم في ذلك البردة التي اشتراها معاوية من أولاد كعب بعد أنْ أبى أبوهم أن يبعهم إيَّاها.(يزيد رزقي، 1438-2017م،ص19).

يقول في القصيدة:(كعب، الديوان، ص26-30).

بانت سُعادُ فقلبي اليومَ متبول ... مُتيّم إثرها لم يُجز مكبولُ

وما سُعاد غداة البيِّن إذ رحلوا ... إلا أغنُّ غضيضُ الطَّرف مكحولُ

تجلو عوارضَ ذي ظلمٍ إذا ابتسمتْ ... كأنّه منهل بالرَّاح معلولُ

شُجَّت بذي شَبمٍ من ماء مَحْنيةٍ ... صافٍ بأبطحَ أضحى وهو مشْمولُ

تجلو الرِّياح عنه وأفرطه ... منْ صوب ساريةٍ بيضٌ يعاليلُ

ياويحها خُلَّةً لو أنَّها صدقتْ ... ماوعدتْ أولَو أنَّ النُّصح مقبولُ

لكنَّها خُلَّةٌ قد سِيطَ من دمها ... فجعٌ وولعٌ وإخلافٌ وتبديلُ

فما تدوم على حالٍ تكون بها ... كما تلوَّن في أثوابها الغولُ

وماتمسكُ بالوصلِ الذي زَعمت ... إلا كما تُمسكُ الماءُ الغرابيلُ

كانتْ مواعيدُ عُرقُوبٍ لها مثلًا ... وماموا عيدُها إلا الأباطيلُ

أرجُو و آملُ أنْ يَعْجَلنَ أَبِدٍ ... مالُهنَّ طوالَ الدَّهر تعجيلُ

فلا يَغُرنك ما منَّتْ وما وعدتْ إنَّ الأمانيَّ والأحلام تضْليلُ
أمستْ سُعادُ بأرضٍ لا يُبلِّغها إلا العِتَاقُ النَّجيباتُ المراسيلُ
ولن يُبلغها إلا عزافرةٌ فيها على الأينِ إرقالٌ وتبْغيلُ

بدأ كعب قصيدته كسائر الشعراء الجاهليين بالغزل والذي هو أحد أساليب البدايات للقصائد الجاهليَّة بجانب الأطلال والخمر والذي امتدَّ بعضها في الإسلام عدا الخمر الذي يتنافى مع منهاج الإسلام فهجَّرفبعُ د الشعراءُ المسلمون عنه.

علًما بأنَّ كعبًا قد نشأ في أسرة شاعرة لذا ظهرت موهبته الشاعريَّة في زمن مبكر ، وقد رعى والده زهير تلك الموهبة بالمران والتدريب حتى يُمكن ابنه من قول الشعر الجيِّد فكعبٌ شاعرٌ فحلٌ نشأ في بيئات متعددة ومتباينة.(أبوهدايا ضو البيت، ورقة بحثية 2010م)

وهنا تغزل كعب في أربعة عشر بيتًا ، من بداية القصيدة إلى البيت الرابع عشر، وهذه مقدمة غزليَّة طويلة جرت على عادة الشُّعراء في ذلك الوقت ، حيث بين أنَّ قلبه معلقٌ بسعاد مُتيَّم بها ، وقد حشد لها ألفاظَ الجمالِ والدلال مبالغ في وصفها ، فقد وصفها بالغزال كما وصف أسنانها بالبيضاء فقد شبه ماء أسنانها بمنهل الخمر وهنا يتضَّح تأثر الشاعر بالطابع الجاهلي مع أنَّ القصيدة في مدح للنَّبي صلى الله عليه وسلم ، ثم وصفها بإخلاف الوعد وهذا عند النساء حُسن لأنَّه من كمال الدَّلال ، ثم شبه مواعيدها بمواعيد عرقوب الذي يُضرب به المثل في خلف الوعد ، وأخيرًايصور بُعدها عنَّه فهي بعيدةٌ عنه يحتاج الوصول إليها إلى نوق عتيقة وكريمة وسريعة ، بل لابدَّ أن تكون غليظة وشديدة القوة ، فمهمتها صعبة ، وكلُّ ذلك ليوصل إلينا الشَّاعر فكرة البعد عن المحبوبة عنه، فالوصول إلى سعاد ليس سهلًا بل يحتاج لما سبق لأجل الوصول .

ويقول:(كعب،الديوان، ص30-36).

من كلِّ نضَّاخة النَّفرى إذا عرقتْ عُوصتها طامس الأعلام مجهولُ
ترَمي الغُيُوبَ بعَينيْ مُفرِدٍ لهِقٍ إذا توقدتِ الحُزَّانُ والميلُ
ضخْم مُقلَّدُها فَعْم مُقَيده في خَلقها عن بنات الفَحْلِ تفْضيلُ
حرْفٌ أخوها أبوها من مهجنةٍ وعمُّها خالُها قَوْداءُ شِمْليلُ
يمشي القُرادُ عليها ثم يزْلقه منها لبانٌ وأقرابٌ زهاليلُ
عَيرانة قذفتْ في اللَّحم عن عُرُضٍ مرْفقها عن بنات الزورِ مفْتُولُ
كأنَّ مافات عينيها ومذْبَحها منْ خَطْمها من اللَّحيين بِرْطيلُ
تمرُ مثل عسيبِ النَّخلِ ذا خُصلٍ في غارزٍ لم تُخوِّنه الأحاليلُ
قَنْواء في حُرَّتيها للبصِّير بها عِتْقٌ مُبينٌ وفي الخَدَّين تسْهيلُ
تخْدي على يسَرات وهي لاحقةٌ ذوابلٌ وَقْعهنَّ الأرض تحليلُ
سُمرُ العُجايات يَتْرُكن الحصى زيمًا لم يقهنَّ رؤوس الأكمِ تنْعيلُ
يومًا يظَلُّ به الحرباء مُصْطخمًا كأنَّ ضاحيه بالنَّار مملولُ
كأنَّ أوبَ ذراعيها وقد عَرِقَتْ وقد تلَفَّع بالقورِ العسَّاقيلُ
شدَّ النَّهار ذراعا عيطلٍ نَصفٍ قامتْ فجاوبها نُكْدٌ مثاكيلُ
نوَّاحةٌ رِخوة الضبعين ليس لها لما نعى بكرها النَّاعون معقولُ
تفري اللِّبان بكفيها ومدْرعها مشقَّقٌ من تراقيها رعابيلُ

ومن خلال هذه الأبيات السَّابقة نجد أنَّ كعبًا قد انتقل من غزله إلى وصف ناقته انتقالًا حسنًا يُعد من حسن التخلص وإذا نظرنا إلي بيتيه الآخرين من أبياتالغزل نجد حسن التخلص حيث ربط بين النَّاقة ومحبوبته في البُعد واللّقاء كما أشرنا، وربمَّا يُعُد ذلك مدخلًا جيدًا للاسترسال في وصف ناقته ، فوصف ناقته في ستة عشر بيتًا فقد وصفها بالقوة والشدة وتحمل تعب السفر وفي بيته الثّأني يصفها بالنشاط الذي هو ضد الكسل ، وفي الثالث يصفها بالضخامة والغلظة بل هي مفضلةٌ على سائراتها منالنوق، وفي الرَّابع وصفها بطول العُنق وطول المهجن وكرامة النَّسب، وفي الخامس يصفها بنعومة ملمس الظهر وهذا من حسن النياق، وفي السَّادس وصفها بكبر الرأس وصلابة عظم الوجه، وفي السابع يريد أنَّهالم تُنتج فتحلبْ فيضر ذلك بقوتها، وفي الثَّامن وصف للأنف والأذنين ، والتَّاسع يصفها بالسرعة والرَّشاقة فهي تطرُّد الحصى بأخفافها يمينًا وشمالًا كما وصفها بصلابة الخُف، وفي الحادي عشر ، يصف حال ذراعيها وهي تسير في الهاجرة وهي شدة الحرارة ، وفي الثاني عشر يصفها عند الهاجرة بذراعي امرأة حسناء ، وفي الثالث عشر يصفها بشدة الحركة والالتّدام الذي هو تلاقي الأذرع بقرب الصدر والوجه ، والرَّابع عشر، وصف ناقته بهذه التي تُفري صدرها ومِدْرعها بما هلك من ولدها .

رأينا إلى أي مدى ظلَّ الشاعر محتفظًا بالطَّابع الجاهليِّ من خلال الجُزءين السَّابقين من القصيدة فالأول غزلي والثاني وصف النَّاقة والتي هي من مكونات الشعر الجاهلي ومن أركان البيئة الجاهليَّة علًما بأنَّ القصيدة فكرتها وهدفها مدح للنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه الكِرَّام .

ويقول:(ديوان كعب ،ص 37-38).

يسعى الوشاةُ بجنبيها وقولُهم إنَّك يابنَ أبي سُلْمى لمقتولُ
وقال كلُّ خليلٍ كنتُ آمله لا ألفينَّك إنِّي عنَّك مشغولُ
فقلتُ خَلُّو طريقي لا أبالكُم فكلُّ ماقدَّر الرَّحمن مفعولُ
أنبِئتُ أنَّ رسولُ الله أوعدني والعفُو عند رسولِ الله مأمولُ
مهلًا هداكَ الَّذي أعطاك نافلةَ القرآنِ فيها مواعيظٌ وتفصيلُ
لا تأخذني بأقوالَ الوشاة ولْم أُذنب ولو كثُرت عنِّي الأقاويلُ
لقد أقوم مقامًا لو يقومُ به أرى وأسمعُ مالو يسمعُ الفيلُ

وهنا يظهر الانتقال إلىالاعتذار اللطيف للنَّبي صلى الله عليه وسلم ، بعد رسالة بُجير أخيه وإهدار دمه، فارجع مابدر منه للوشاة في سعيهم للوقيعة ونقل الأخبار، فيطلب منهم مفارقة طريقه ومساره فهو يحتكم لأمر الله وقدره وهنا تظهر ملامح القصيدة الإسلاميَّة ، طالبًا من النَّبي صلى الله عليه وسلم العفو والصفح وأن لا يأخذه بأخبار الوشاة ، فيبعد عنَّه الذنب ولو كثُرت فيه الأقاويل والأخبار، نلحظ أسلوب التَّلطف والحوار وفوق كلّ ذلك التأدب في الخطاب مع النَّبي صلى الله عليه وسلم .

ويقول:(كعب،الديوان ، ص38-39).

لظلَّ يرْعُد إلا أنْ يكون له من ا لرَّسولِ بإذن تنويلُ
حتى وضعتُ يميني لا أنازعه في كفِّ ذي نقمات قيله القيلُ
لذاك أَهيبْ عنِّدي إذ أكلَّمه وقيل إنَّك مسبوٌر ومسئولُ
من ضَيغمٍ من ضراء الأسدِ مخْدره ببطنِ عثَّر غِيلَ دونه غيلُ
يغدو فيلحُم ضرغامين عَيشها لحٌم من القومِ مغفورٌ خرائيلُ

وفي هذه الأبيات الست كان التشبيه والوصف للنبَّي صلى الله عليه وسلم ، فهو يأمل أنْ ينال العفو والامان من الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ، فهو قوله الصادق ويصف لنا اضطرابه حين وضع يده على يده، كما صوَّر لنا مشهد ذاك المنظر وعظمته عند كلامه معه ، كما شبه النَّبي صلى الله عليه وسلم بالضيغم قوة ومهابة وشجاعة.

ويقول مادحًا النَّبي صلى الله عليه وسلم وصحابته: (ديوان كعب ، ص40-42).

إنَّ الرسولَ لنورٌ يُستضاء به مُهنَّد من سيوفِ اللهِ مسلولُ
في عُصبةٍ من قريشٍ قال قائلُهم ببطنِ مكةَ لمَّا أسلموا زُولوا
زالوا فما زال أنكاسٌ ولا كُشُفٌ عند اللِّقاءِ ولا ميل معازيلُ
شُمُّ العرانينِ أبطالٌ لَبوسهم من نَسجِ داودَ في الهيِّجاءِ سرابيلُ
بيضٌ سوابغٌ قد شُكَّت لها حلقٌ كأنَّها حلقُ القَفْعاءِ مَجْدولُ
يمشون مشي الجِمال الزُّهرِ يعصِمُهم ضربٌ إذا عرَّد السُّودُ التَّرابيلُ
لايفْرحون إذا نالتْ رِماحُهُم قومًا وليسُوا مَجازيعًا إذا نِيلوا

نرى هنا مدح النَّبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه الكِرام ، حيث وصفه صلَّى الله عليه وسلم بأنَّه سيف من سيوف الله مسلول وقد أكد الخبر هنا بمؤكدين هما إنَّ واللاَّ م لتبيان الحقيقة ونفي الإنكار ، كما وصف أصحابه بأنَّهم ثابتون عنَّد اللِّقاء والمعركة فلا ينهزمون وليسُّوا بالضُعفاء فلايجْزَعون ، وقوله: في عصبة الحذف بلاغي تقديره جاء أو ظهر وقد كرر بلاغيًّا في زالوا وزال ومازال لغرض التؤكيد والأمر في زولوا بلاغي الغرض منه الكف والانتهاء ، كما وصفهم بعزة النَّفس والشموخ ، وفي قوله: شُم العرانينِ محذوف وهو المسند إليه ليدل على المعرفة والعلم به ، كما وصف دروعهم بالسَّابغة والفضفاضة الضَّافية تُشكُ مع بعضها البعض ، فهم يعرفونها وتعرفهم وقد تدَّربوا عليها وخبروها، كما وصف سيرهم بسير الجِمال مهابةً وقوة ومتانةً ،وفي قوله:يمشون مضارعٌ يدلُ على التَّجدد والنشاط، وقد وصفهم أيضًا بأنَّهم صابرون عند الشدائد والمحن وإذا نُكبوا صبروا وكذا الحال لايزْهون إذا انتصروا ولايفرحون ممايعني الاستمرار في استخدامه للمضارع في عدم الفرح لأنَّ الشجاعة ديدنهم ، ثم ختم قصيدته ببيت يكاد يكون البديع الفرد وهو قوله:

لايقعُ الطَّعنُ إلا في نحورهُم ما إنْ لهم عن حِياض الموتِ تهْليلُ

وفيه كناية عن صفة الشجاعة وأنَّهم لايهربون وأنَّهم ليسوا جبناء بل يستقبلون الموت يقينًا وقد أدخل إذا الشرطيَّة على الماضي المبني للمجهول للتأكيد على شجاعتهم.

مسوغات المقدمة الغزليَّة الطويلة:

يرجع إلى أنَّه كان من عادة الشُّعراء كما هومعلوم في بدايات القصائد، ويمكننا أنَّ نفسر المقدمة الغزليَّة الطويلة في هذه القصيدة عند كعب إلى أنَّها أول قصيدة للشاعر بعد إسلامه ، إذ لايزال متأثرًا بالطابع الجاهلي ولم يتشرب بتعاليم الإسلام وفضائله.

العروض والبحر:

القصيدة من بحر البسيط والذي تفاعيله :(مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن – مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن) مقطوع الضَّرب (فاعل) والقطع: هو حذف ساكن الوتد المجموع من آخر التفعيلة وتسكين المتحرك الذي قبله كمارأينا (فاعِلُنْ) أصبحت (فاعِلْ).(نبوي،ط1،ص225).

وهذا القطع يوحي بانتهاء البيت الشّعري وبحر البسيط يصلح لغرض المدح، كما تلاحظ أنَّ الشاعر اختار حرف اللاّم المسبوقة بالرِّدف الوا و أو الياء حيث يجوز إذا ماكان قبل الرّوي واًوا أنْ تتعاقب معه الياء وهذا ما فعله الشَّاعر، ووجود هذه الياء أو الواو قبل الرَّوي ، تُعطي الشَّاعر نفسًا لنطق اللّام ، لأنَّ الشاعر مكلومٌ بسبب الجريرة التى ارتكبها وهي هجاؤه النَّبي صلى الله عليه وسلَّم.

الجُمل والتَّراكيب:

نجد أنَّ الشَّاعر ومن خلال قصيدته ، قد أكثر من الجمل الخبريَّة ذات الضَّرب الابتدائي وهي الخاليَّة من حدوث المؤكدات ، ليدلل على أنَّ الصِّفات التي مدح بها النَّبي صلى الله عليه وسلَّم صفات مسلَّمٌ بها لا تحتاج إلى تأكيد ، ولم يؤكد إلا في أبيات قليلة كقوله :إنَّ الرَّسول لنورٌ يستضاءُ به ، ويتَّضح أنَّ الشَّاعر قد استَّخدم الصور البيانية بوضوح في أبيات قصيدته– وهذا ماسيظهر من خلال تناولنا للفنون البلاغيَّة في القصيدة– ولم ينكر عليه النَّبي صلى الله عليه وسلَّم وذلك لحداثة عهده بالإسلام.

الفنون البلاغيَّة في القصيدة:

1– الجناس النَّاقص في البيت الأول من القصيدة بين كلمتي متبولُ ومكْبولُ وهذا الجنَّاس يصب في إضفاء الطَّابع الموسيقي ونغمة الجِرس.

2– التشبيه الصَّريح في البيت الثالث من القصيدة كأنَّ منَّهلٌ بالرَّاح معلول في تشبيه لماء الأسنان بمنهل الخمر.

3–التشبيه في بيته الثَّامن في قوله: كما تلوَّن في أثوابها الغولُ ففي صدر البيت وصفها بأنَّها لا تدوُم على حالٍ وبذلك فقد شبهها بالغول الذي هو جنسٌ من الشياطين.

4– التشبيه في التَّاسع : فقد شبها عدم تمسكها بالوصال بعد م استقرار الما في الغرابيل، وهنا تظهر قيمة وبلاغة التشبيه في أثره في المعنى .

5– الإطناب في البيت الثَّاني عشر: وذلك عن طريق التذيل ويُسمى تذييل جاري مجرى المثل وهو أنَّ الأماني والأحلامُ تضليلُ

6– الكناية عن الصِّفة في البيت الثالث عشر:وهي كناية عن صفة البُعد وذلك في قوله: أمست سعادُ بأرضٍ لا يبلُغها إلا العِتاق النَّجيبات المراسيلُ

7– التشبيه البليغ في البيت التَّاسع والعشرين : في قوله تنفي يداها الحصي نفي الدراهم ، فقد شبه لفظ الحصي لناقته بنفي الدَّراهم ولم يستخدم أداة التشبيه.

8– التذييل الجاري مجرى المثل في قوله: فكلُّ ماقدَّر الرحمن مفْعولُ

9– الكناية عن موصوف وهو النّبي صلى الله عليه وسلَّم في قوله:

حتى وضعت يميني لا أنازعه في كفِّ ذي نقمات قيله القيلُ

10– التشبيه البليغ في قوله:

إنَّ الرَّسول لنورٌ يستضاءُ به مهنَّدٌ من سيوف الله مسْلولُ

فقد شبه النَّبي صلى الله عليه وسلم بالنُّور الذي يستهدى به ويضئ ، دون استخدام أداة التشبيه.

11– الكناية عن صفة الشموخ والرِّفعة والعزة في وصفه لصحابة النَّبي صلى الله عليه وسلم:

شُمُّ العرانين أبطالٌ لَبوسهم من نَسجِ داودَ في الهيجاء سرابيلُ

12- الكِّناية عن صفة الشجاعة والإقدام والثبات في ملاقاة الأعداء جات في قوله:

لايقعُ الطَّعنُ إلا في نحورهُم ما إنْ لهم عن حِياض الموتِ تهْليلُ

13- الحذف قوله:

أنبِئتُ أنَّ رسولَ اللهِ أوعدني والعفُو عند رسولِ الله مأمولُ

والغرض من الحذف هنا هو الخوف على الفاعل ، إذ حذفهولم يصرح به خوفاً عليه

وفي القصيدة معاني تدل على أنَّ شعراء المشركين لهم علم بتعاليم الإسلام ومعاني القرآن الكريم والدليل على ذلك ما التمسناه في بعض الأبيات التي أنشدها كعب بن زهير ومنها:

مهلًا هداك الذي أعطاك نافلةَ ال قرآنِ فيها مواعيظٌ وتفصيلُ

فقبل إسلامه وكغيره من الشُّعراء الجاهليين كان يعلم أنَّ القرآن الكريم قد أُنزل على نبيه الكريم صلى الله عليه وسلم.

قصيدة أكرم بقومٍ رسولُ الله شيعتهم ، لحسَّان بن ثابت:

ويُعد حسَّان بن ثابت من أبرز الشعراء المخضرمين وقيل إنَّه عاش حياته مناصفة بين الجاهلية والإسلام، ستون عاماً في الجاهليَّة ومثلها في الإسلام.

ويُذكر أنَّ حسانا بن ثابت لما بلغ الستين من عمره وسمع بالإسلام دخل فيه وذهب من فوره يرد هجمات القرشين اللاّ سانيَّة ويدافع عن النَّبي محمد صلى الله عليه وسلم ويهجو خصومه منهم ،وكان النبي صلى الله عليه وسلم يثني على شعر حسان ،وكان يحثه على ذلك ويدعو له بمثل (اللهم أيده بروح القدس) وعطف عليه وقرَّبه منه وقسَّم له من الغنائم والعطايا ، وكان حسان لايقوى على الحرب فاكتفى بالدِّفاع بقلمه وشعره ،كما أنَّه لم يشهد مع النبي صلى الله عليه وسلم معركة أو غزوة.(نبأ الحقيقة،429،2013م).

ويقول حسَّان بن ثابت في قصيدته:(حسان ،الديوان، ص248-251).

إنَّ الذوائب من فِهْرٍ وإخوتِهم قد بيَّنوا سُنةً للنَّاسِ تُتبعُ
يرضى بها كلُّ من كانتْ سَريرتِه تقوى الإلهِ وبالأمرِ الَّذي شرعوا
قوْمٌ إذا حاربوا ضرُّوا عَدُوهم أو حاولوا النَّفع في أشياعهم نفعوا
سجيَّةَ تلك منهم غيرُ محدثةٍ إنَّ الخلائقَ فاعلْم شرَّها البِدعُ
إنْ كان في النَّاس سبَّاقون بعْدهم فكلُّ سَبْقٍ لأدنى سَبقهم تَبعُ
ولا يضْنُون عنْ مولى بِفضلهُم ولا يصبيهم في مطْمعٍ طَبعُ
لايجْهلون وإنْ حاولتْ جهْلهُم في فضلِ أحلامِهم عن ذاك مُتسعُ
أعفةً ذُكرت في الوحي عِفْتَهم لا يطْبعون ولا يُرديهُم الطَّمعُ
كم مِنْ صديقٍ لهم نالوا كرامته ومن عدوٍ عليهم جاهدٍ جدعوا
أعطوا نبيَّ الهُدى والبرِّ طاعتُهم فما ونا نَصرُهم عنَّه وما نَزعوا
إنْ قال سيروا أجدُّوا السَّير جُهدهُم أو قال عُجُوا علينا ساعةً رَبعوا
مازال سيرهم حتى استَّقاد لهم أهلُ الصَّليبِ ومنْ كانتْ له البيعُ
خُذْ منْهم ما أتى عفوًا إذا غَضِبوا ولا يكُنْ هُمك الأمر الَّذي منَعوا
فإنَّ في حربهم فاتركْ عداوتهم شرًّا يُخاضُ الصَّاب والسَّلعُ

نسموا إذا الحربُ نالتنْا مخالبُ ها إذا الزَّعانف من أظفارها خَشعُ وا
لا فخْرَ إنْ هم أصابوا من عُفُوّهم وإن أُصيبوا فلا خوّر ولا جزعُ
كأنَّهم في الوغى والموت مُكتنعٌ أُسدٌ ببيشةِ في أرساغها فَدَعُ
إذا نَصبْنا لقومٍ لا ندَبُ لهم كما يَبِبُ إلى الوحشيةِ الزُّرعُ
أكرِم بقومٍ رسولُ الله شِيعتهم إذا تفرَّقتْ الأهواءُ والشيعُ
أُهدِى لهم مَدْحي قلبٌ يوازره فيما يُحبُّ لسانٌ حائكٌ صَنعُ
فإنَّهم أفضلُ الأحياء كلِّ هُم إنْ جدَّ بالنَّاس جدُّ القوْلِ أو شَمعوا

جاءت القصيدةُ في مجملها مدحًا خالصًا للأشراف والأصل من قريش الذين أعطوا نبيَّ الله صلى الله عليه وسلم طاعتهم وولاءهم له.

مسوغات مطلع القصيدة:

تلاحظ أنَّ حسَّانًا لم يبدأ هذه القصيدة بأحد مقدمات القصائد السَّائدة ، خاصة الغزل بل دخل في غرضه مباشرة وهو المدح، ولعل السبب في ذلك يعود إلى مناسبة القصيدة نفسها، أو الموضع الذي قيلت فيه ، لأنَّ النبي صلى الله عليه وسلَّم ، أرسل لحسَّان رضي الله عنه ليرد على شاعر بني تميم الزبرقان بن بدر ، الذي جاء مع وفد تميم ليفاخر النَّبي صلى الله عليه وسلَّم، أو ربَّما هناك سبب آخر منع حسَّان من أنْ يفتتح قصيدته بالمطلع الغزلي وهو أنَّ حسَّان قد تشربت فيه الرُّوح الإسلاميَّة وأصبح متمكنًا في الدِّين والعقيدة ، خلافًا لكعب بن زهير الذي كان حديث عهد بالإسلام ، لذا طغى المشهد الغزلي ووصف النَّاقة في قصيدته والتى قد أُنشدها يوم إسلامه متأثرًا بالطابع الجاهلي، وقد يُبْدر ثمَّة سؤال من أين استمَّد كعبٌ المعاني الإسلاميَّة التي وردت في قصيدته ؟ رغم أنَّه لم يدخل الإسلام إلا يوم إنشادها وربَّما كانت الإجابة : هي أنَّ تعاليم الإسلام معروفة لدى للمشركين يتناقلونها فيما بينهم كما أنَّ الإسلام أبقى على عادات الجاهلية الحسنة ، كما يُلاحظ أن شعر حسَّان تتضح فيه المعاني الإسلامية جلية.

الشرح الدَّلالي للنَّص:

يظهر أنَّ قصيدة حسَّان بن ثابت قد التزمت بوحدة الموضوع ، أو الوحدة النَّاظمة للموضوع ، فلم تُسجل مضابطها غرضًا غير المدح، وهذا يكاد يكون مستحيلًا في الشَّعر الجاهلي، اتَّسمت قصائده بتعدد الموضوعات طولًا وقيصرًا، فقد على أنَّ الأشراف من أصل قريش ، كانوا قدوة يُتبعون فلذا يرضى بهم من يتمسكون بتقوى الله سبحانه وتعالي، فقد وصفهم بأنَّهم أقوياء يقضون على أعدائهم كما وصفهم بالحكمة أيضًا ، فقد وصفهم بالمقدمة وإذا حاول بعضهم التَّقدم لايستطيع وأصبح مُتبعًا له، كما وصفهم بالإيثار والعطاء دون منٍّ أو أذى ،كما وصفهم برزانة العقول والنُّهى وأبعد عنهم صفة الجهل، وصفهم بالعفة وعزة النَّفس ، كما وصف برهم و طاعتهم الكاملة للنَّبي صلى الله عليه وسلم ، كماوصف قوتهم وشجاعتهم وإقدامهم حتى انقاد إليهم أهل الصليب ويقصد بذلك النَّصارى، كما يطلب العفو والصَّفح إذا غضبوا ، كما وصفهم بأنَّهم لايزهون ويستكبرون ولايفخرون إنْ نالوا من عدوهم ، وإنْ أُصيبوا من عدوهم لا يجْزعون، فقد شبههم بالأُسد شجاعة وبسالة في معارك الحروب، ثم مدحهم وتعجب بهم لأنَّهم قوم شايعوا النَّبي صلى الله عليه وسلم ، وفي الختام أهداهم هذه القصيدة مدحًا وإعجابًا بهم ، مرسلها لهم صدقًا من قلبه، وهم بذلك أفضل الأحياء كلِّهُم.

وهذه القصيدة قد أحدثت أثرًا قويًّا في سامعيها ، فقد ورد أنَّه لمَّا فرغ حسَّان بن ثابت من إنشادها ، قال الأقرع بن حابس التميمي: وأبي أنَّ هذا الرَّجل لمؤتي ، لخطيبه أخطب من خطيبنا ، ولشاعره أشهر من شاعرنا ، وأصواتهم أعلى من أصواتنا ، فلم فرغ القوم أسلموا وجوَّزهم رسول الله صلى الله عليه وسلم.(الديوان 29)

الصوَّر الفنيَّة والبلاغيَّة في قصيدة حسَّان:

حفلت القصيدة بالعديد من الألوان البيانيَّة والبلاغيَّة المختلفة فقد غطت القصيدة على أجزاء مختلفة من ألوان البيان والمعاني والبديع يمكن إيرادها في الآتي:

1- تأكيد الخبر في البيت الأوَّل: بمؤكين هما:(إنَّ وقد) فالجملة خبريَّة خبرها إنكاري وُيلقى للمنكر وقد ناسب ذلك وفد بني تميم لأنَّهم منكرين لدعوة النَّبي صلى الله عليه وسلَّم ، بدليل قدومهم لمفاخرته صلى الله عليه وسلم ومعهم خطيب وشاعر، لذا جاء التأكيد عند حسَّان ليُثبت إليهم.

2- الحذف في البيت الثالث في قوله: قوِّم إذا حاربوا.. والأصل هم قوِّم فقد حُذف المُسند إليه ويتّضح أنّ الغرض من الحذف إضافة إلى الإيجاز والاختصار يقصد منه تقوية المدح فقوله: قوِّم هي أقوى في المدح والفخر من قوله: هم قوِّم.

3- الإطناب في البيت الرَّابع :في الشَّطر الأخير وهذا يُسمى تذييل جاري مجرى المثل وهو قوله: إنَّ الخلائق فاعلم شرها البدعُ ، كما نجد في البيت نفسه الإطناب بالاعتراض في قوله: فاعلم.

4- وفي البيت الخامس: ورد ردُّ الصَّدر إلى العجز وهو من الفنون البديعيَّة والمحسِّنات اللفظيَّة وذلك في قوله: (لايرقع) في بداية البيت ثم ختم البيت بقوله: (مارقوا).

5- الحذف في البيت الثَّامن: لايجهلون وإن حاولت جهلهم ، حيث حذف جواب الشرط لدلالة ماقبله عليه ، والتقدير وإنْ حاولت جهلهم فهم لايجهلون والغرض من الحذف ، الإيجاز والاختصار.

6- جاء الحذف في البيت التَّاسع في قوله: أعفةٌ ذُكرت في الوحي عِفتهم ، والتَّقدير، هم أعفةٌ والغرض من ذلك كما اتّضح تقوية المدح ، إضافة ألى الاختصار والإيجاز.

7- الطبَّاق في البيت العاشر: حيث طابق بين كلمتي صديق وعدو وهما من النقيض.

8- الإطناب بالجملة الاعتراضيَّة في البيت الخامس عشر : فإنَّ في حربهم _ فاترك عداوتهم _ شرًا يُخاض ، والغرض منه تخويف الأعداء من حربهم كما نلاحظ في هذا البيت تقديم خبر إنَّ في (حربهم) على أنَّها (شرًا) والغرض منه القصر كما أكد الخبر بأنَّ.

9- وفي البيت السَّادس عشر: جاءت الاستعارة المكنيَّة في قوله:إذا الحرب نالتنا مخالبُها فجعل للحرب مخالب تلتهم أي أعطى صفة المحسوس لغير المحسوس.

10- الالتفات في البيت السَّابع عشر: حيث التفت من ضمير الغيبة(هم) إلى التَّكلم (نحن) في قوله: يسمون ويسمو.

11-وفي البيت الثَّامن عشر جاء التشبيه: حيث شبههمبأُ تشبيهًا لهم بالقوة والشجاعة والفراسة، ثم زاد بما يُعرف بتحقيق التَّبشيه بقوله: في أرساغها فدعُ.

12- وفي البيت التَّاسع عشر: كانت الكناية عن صفة إذا نصبنا لقومٍ لا نذُب لهم وهنا كناية عن الوفاء وعد الخيانة حيث يواجهون عدوهم وجهًا لوجه .

13- المجاز المُرسل: في البيت قبل الأخير في كلمة (لسان) وهو مجاز مُرسل علاقته الآلية أو السببية لأن اللِّسان هو آلة النُطق واللُغة.

ما تلاقى فيه الشاعران:

1- من ناحية العروض والموسيقى، القصيدتان جاءتا على بحر البسيط الذي يَصلح لغرض المدح، وهو بحر يسهل النظم فيه، فقصيدة كعب من الضرب المقطوع وقصيدة حسَّان من الضَّرب المخبون، والخبن هو: (حذف الثاني الساكن من فاعلن مستفعلن فاعلاتن مفعولات مفعولن).(نبوي، ط1،ص222).

2- وكذلك عدد المقاطع الطويلة مُتساوية ثمانِ عشر مقطعًا أما المقاطع القصيرة في قصيدة كعب فعددها ثمانِ مقاطع ، أما في قصيدة حسَّان فعددها عشر مقاطع.

3- أما من حيث الرَّوي ،والرَّوي : هو حرف من حروف المد الألف، الواو، الياء بعد حركة متجانسة الفتحة ، الضمة ، الكسرة).(الخويسكي، ج2، ص20).

4- ففي قصيدة كعب حرف اللَّام المسبوقة بردف (الواو أو الياء)وهذا يُعطي الشَّاعر فرصته لاختيار كلمة الرَّوي التي تناسبه لكثرة الكلمات التي تنتهي باللام المسبوقة بالواو أو الياء المسبوقة بحرف المدح ، يوحي بأنَّ الشَّاعر مكلوم ونفسه متنازعة بين قبول اعتذاره أو عدم قبوله ، أما الرَّوي في قصيدة حسَّان فهو العين المسبوقة بالواو وقافية العين من القوافي القصيَّة ، وأيضًا يُعطي براعًا في إنتاج كلمات المدح.

5- اتَّفق الشاعران في تشبيه الشَّجاعة والفراسة والقوة عند قومهم بالأُسد ولعل هذا شائعًا جدًا في الشعر العربي القديم.

6- اتَّفق الشاعران في وصف قومه بالثبات وعدم الخيانة كما نفى كلا الشاعرين الجزع عن قومه.

7- تقارب الشاعران في استخدام أداة البيان التشبيه في تشبيه ممدوحيهم بمواضع الشجاعة والفراسة والبأس.

أوجه الاختلاف:

1- ظهرت جليًّا مظاهر الاختلاف في عنصر الألفاظ ، إذا نظرنا إلى قصيدة كعب سنجد أنَّ ألفاظها حبلى بالحوشي والغريب من الألفاظ وربُما يحتاج بعضها إلى الشرَّح وتبيان الدلالة، أمَّا قصيدة حسَّان فقد اتَّسمت بالسهولة والوضوح والكشف عن الدَّلالة ، ويمكن إرجاع ذلك إلى أنَّ حسَّان قد أكثر التَّجوال في الحواضر ومدح ملوك الغساسنة وغيرهم ، فلانت لغته بخلاف كعب الذي لم يُسمع عنَّه أنَّه مدح أحد المُلوك أو أكثر التَّجوال.

2- نَوع حسَّان بن ثابت في استخدام الألوان البلاغيَّة بكثرة فاستخدم البيان والمعاني ثمَّ البديع، أما كعب فقد طغى على قصيدته استخدام لون بلاغي بكثرة وهو البيان وهذا ربَّما يرجع إلى تأثره بالطَّابع الجاهلي الذي كان يكثر فيه هذا اللون البلاغي.

الخاتمة:

اتضح إلى أي مدى وجد المدح حظًا عظيمًا عند الشُّعراء المخضرمين خاصة أبرز شعرائهم كعب بن زهير وحسَّان بن ثابت، وحتمًا ما اتضحمن تحليل للقصيدتين السَّابقتين لايُثمل كل قصائد المدح عند الشَّاعرين ، فحفل دوانيِّهما بكم هائل من قصائد المدح، لذا تمثل القصيدتين السَّابقين أنموذجًا حاولت من خلالها الدِّراسة أجراء التقارب والموازنة بين الشَّاعرين من خلال غرض المدح ، لذا يُوصى بمزيدٍ من الدراسة في هذا الغرض والأغراض الأخرى.

نتائج الدِّراسة:

من خلال إجراء الدراسة مقرونة بالتحليل والنقد تشكلت عدة نتائج للدِّراسة يمكن بيانها في الآتي:

1- لم يتخلَّص كعب بن زهير من المطالع والوصف الجاهلي في قصيدته إذ بدأها بالغزل مع أنَّ القصيدة قالها بعد إسلامه وهذا راجعٌ إلى حداثة عهده بالإسلام.

2- تنوعت الموضوعات داخل قصيدة كعب بن زهير لكنَّه أبدع في حسن التخلص .

3- اتَّسمت قصيدة كعب بن زهير بغموض وصعوبة الألفاظ وذلك لتأثره بالطابع الجاهلي.

4- حصر كعب استخدام البلاغة في لون البيان بصورة أكبر ولم يلتفت إلى الألوان الأخرى كثيرًا.

5- نظم كلا الشاعرين قصيدته في بحر البسيط الذي يناسب غرض المدح ، مع اختلاف الرَّوي بما يناسب الإمكانيات وبيئة القصيدة.

6-تميزت قصيدة حسَّان بن ثابت بسهولة الألفاظ ووضوحها مع الالتزام بالوحدة العضوية للقصيدة وهذا راجعٌ لتمكن حسَّان الشِّعري والفترة الطويلة التي عاشها في الإسلام.

7- نوَّع حسَّان بن ثابت في استخدام الفنون البلاغيَّة ، فاستخدم البيان ثم المعاني انتقالًا إلى البديع وذاك راجع لدراية حسَّان بفنون اللغة والنَّظم.

8- كلاهما اجتهد في اختيار المفردات لوصف الممدوح ، وقد تقاربا في ألفاظ وتشبيهات الشجاعة والصبر الثبات.

المصادر والمراجع:

1- أبوهدايا الضو حامد، ورقة علميَّة: الصَّورة الشعريَّة في شعر كعب بن زهير ، مجلة كلية الآداب جامعة بنها، العدد الثاني والعشرون ،يناير 2011م.

2- إميل بديع يعقوب، موسوعة علوم اللغة العربيَّة ، م4، دار الكتب العلميَّة –بيروت ،لبنان.

3- ابن منظور، لسان العرب، ط1430-2009م، م12، دار الكتب العلميَّة ،بيروت لبنان.

4- البرقوني،عبدالرحمن، شرح ديوان حسان بن ثابت الأنصاري، 1347-1929، المكتبة التجارية الكبرى ، المطبعة الرحمانية بمصر.

5- الجرجاني، الشَّريف ، التَّعريفات، ط1 200م، دار الكتب العلميَّة بيروت لبنان

6- الخويسكي، زين كامل، محمد مصطفى، العروض العربي صياغة جديدة، ج2، أبو شوارب دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر.

7- العسكري، أبي سعيد الحسن بن الحسين، ديوان كعب بن زهير، قدَّم له حنا نصر الحتى، ط1 1414هـ – 1994م، دار الكتاب العربي ،بيروت لبنان.

8- عبدالعزيز نبوي، العروض والقوافي بين القديم والجديد ومعه لزوم مالايلزم ، ط1 1436-2015م ، الدار المصريَّة اللُّبنانيَّة.

9- مجلة نبأ الحقيقة ، العدد 429، تاريخ 28|4|2013م.

10- يزيد رزقي، قصيدة بانت سعاد لكعب بن زهير دراسة نقديَّة، مذكرة مكملة مقدمة لنيل درجة الماجستير1438هـ-2017م، جامعة العربي بن مهيدي، الجزائر.